أسلوب خطاب الله للنُّخبة المؤمنين في القرآن الكريم

Kur'ân-ı Kerîm'de Allah-u Teâlâ'nın Seçkin Müminlere Hitap Üslubu

The style of God's speech to the elite believing in the Holy Qur'an

نظام الدين عيد

Nezam Alddin EİD

Öğr. Gör, Ondokuz Mayıs Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslâm Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagatı Ana Bilim Dalı

Lecturer, Ondokuz Mayıs University, Faculty of Divinity, Department of Basic Islamic Sciences, Arabic Language and Rhetoric Branch

Samsun / Türkiye

nezoeid@gmail.com

ORCID: 0000-0002-9216-1658

أحمد درويش مؤذن

Ahmet Derviş MÜEZZİN

Dr. Öğr. Üyesi, Ondokuz Mayıs Üniversitesi, Mütercim Tercümanlık Bölümü, Arapça Ana Bilim Dalı

Assist Prof., Ondokuz Mayıs University, Translation Department, Arabic Language Branch

Samsun / Türkiye

moazan.ahmad@gmail.com

ORCID: 0000-0002-8702-6371

DOI: 10.34085/buifd.1066720

Öz

Kur'ân-ı Kerîm'deki hitap üslubu, geçmişten günümüze kadar âlimler ve belâgatçıların yanında ilgi uyandıran bir konu olmuştur; söz konusu üslubu içermesi, Kur'ân-ı Kerîm'in üslup güzelliklerinden, mânâdaki inceliklerinden, anlatım çeşitliliklerinden biridir. Ayetleri incelediğimizde bu çeşitliliği fark ettik. Konuların ve nidâ sîgalarının, muhatabın konumuna göre değiştiğini gördük. Çalışmamızda, Allah'ın (azze ve celle) toplumun seçkin kesimine konumlarının farklılığına göre hitabındaki üslubunu incelemeyi, bununla beraber klasik ve modern ilim insanlarına göre "hitap" ve "seçkin sınıf"ın anlamlarını umumi hitap ile Kur'ânî hitap arasındaki farka da değinerek ortaya koymayı amaçladık. Aynı zamanda seçkinlere hitabın çeşitlerini de inceledik. Söz konusu hitabı peygamberlere hitap, salihlere hitap ve mü'minlere hitap olmak üzere üç kısma ayırdık. Bu hitapların geçtiği sîgaları tek tek aktardık. Nebîler ile peygamberlere hitaptaki üslup ile peygamberimiz Hz. Muhammed'e (s.a.v) hitabın farkını inceledik. Bazı ayetler üzerinde durup, onları inceleyip analiz ederek ilâhî hitabın hedeflediği seçkin sınıfları ve buna dair sîgaları incelerken betimleyici yöntemi, seçkinlere hitap üslubunun göze çarptığı bazı nitelik ve özellikleri incelerken de analitik yöntemi kullandık. Bu özelliğin ne kadar güzel ve harika olduğuna dikkat çektik. Kullarına karşı ilâhî hitabın çeşitliliğinin sebeplerini inceledik.

Anahtar Kelimeler: Belâgat, Hitap Üslubu, Seçkin Sınıf, Kur'ân-ı Kerîm, Allah-u Teâlâ'nın Hitabı.

Abstract

The style of discourse in the Qur'an has received the attention of scholars and rhetoricians, in the past and present. This is because of the beauty it contains in the structure, accuracy in meaning, and diversity in expression. Through our extrapolation of the verses of the Noble Qur'an, we have noticed this diversity, the change in the forms of the appeal and the topics in proportion to the addressee and his position. This study aimed to reveal the style of God Almighty's speech to the elite of people of different statures. This study also aimed to clarify the meaning of discourse and elite among the ancients and modernists, with a mention of the difference between the concept of public discourse and the Qur'anic discourse. We also mentioned the types of elite discourse, which we divided into three types: a discourse to the Prophets, the righteous, and the believers. We have listed the forms in which these discourses were stated, and the difference between the manner of addressing the Prophets and Messengers and the manner of addressing our Prophet Muhammad, peace be upon him. We have used the descriptive approach to extrapolate the types of elite targeted by the divine discourse and the forms used. In addition, we have used the analytical approach to study some of the features and

characteristics that characterize the elite discourse style by examining some Qur'anic verses analysis and application. We have indicated the extent of the beauty and splendor of this style, and the reasons for the diversity of the Divine discourse to His servants.

Keywords: Rhetoric, Speech style, Elite, The Holy Qur'an, God's speech.

الملخص

نال أسلوب الخطاب في القرآن الكريم اهتمام العلماء والبلاغيين قديمًا وحديثًا؛ وذلك لما يحتويه من جمالٍ في المبنى، ودقّةٍ في المعنى، وتنوّع في التعبير، وقد لاحظنا من خلال استقرائنا لآيات القرآن الكريم هذا التنوّع، وتغيّر صيغ النداء والموضوعات بما يتناسب مع المُخَاطَبِ ومكانته. هدفت هذه الدراسة للكشف عن أسلوب خطاب الله عزَّ وجلَّ للنُّخبة من المؤمنين على اختلافِ مكاناتهم، بحيث بدأنا ببيان معنى الخطاب والنُّخبة عند القدماء والمحدثين، مع ذكر الفرق بين مفهوم الخطاب العام والخطاب القرآني، ثم ذكرنا أنواع خطاب النُّخبة، وقد قسّمت إلى ثلاثة أنواع: خطاب للأنبياء وللصالحين وللمؤمنين، وسردنا الصيغ التي وردت فيها تلك الخطابات، والفرق بين أسلوب مخاطبة الأنبياء والرسل وأسلوب مخاطبة نبينا محمد ﷺ، مُستخدمين المنهج الوصفي في استقراء أنواع النُّخبة التي استهدفها الخطاب الربّاني، والصيغ التي جاءت عليها، والمنهج التحليلي في دراسة بعض السّمات والخصائص التي يتميز بها أسلوب خطاب النُّخبة عبر الوقوف على بعض الآيات القرآنية تحليلًا واستنباطًا، وأشرنا إلى مدى جمالية هذا الاختصاص وبديعه، وأسباب تنوّع الخطاب الإلهي لعباده.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، أسلوب الخطاب، النُّخبة، القرآن الكريم، خطاب الله.

1. المقدّمة

إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله وخطابه المنزل بالوحي على نبينا محمّدٍ ﷺ، والمعجز في آياته وبلاغته وأسلوبه، وقد درس العلماء هذه الأساليب، فكان من أكثرها شهرة أسلوب الخطاب، الذي يتميز بمناسبته للحال والمقال والشخص المخاطب، وخلوّه من الحشو والتطويل.

وكان المفسّرون أوّل من بدأ بإحصاء أساليب الخطاب القرآني بشكلٍ متفرّقٍ عبر ذكر تلك الأساليب أثناء التفسير، وتبعهم أصحاب علوم القرآن الذين أحصوا ما أقدم عليه المفسّرون والبلاغيون، وجمعوا تلك الأساليب في القرآن الكريم، وقد وصلت كما أشار بعض العلماء إلى حوالي ثلاثين نوعًا.[1]

وتكمن أهمية الدراسة في بيان خصائص وجماليات تنوع أساليب الخطاب في القرآن الكريم للنُّخبة من المؤمنين، إذ يتنوع هذا الخطاب بحسب مكانة المخاطَب، فالنبي والرسول خطابهما مختلف عن المؤمنين عامة، كما أنَّ خطاب النبي ﷺ مختلف عن خطاب بقية إخوانه من الأنبياء، وكل هذا التنوع في الخطاب له جماليات وأسرار يطيب لنا الكشف عنها أثناء الدراسة.

ومن بين الأسئلة التي وقفنا عندها أثناء الدراسة، هي:

- من المقصود بالنخبة المؤمنين في القرآن الكريم؟
- كيف يخاطب الله سبحانه وتعالى هذه النخبة في القرآن الكريم؟

[1] انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1974م، 3: 109.

- ما خصائص هذا الخطاب الرباني للنخبة في القرآن الكريم؟

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ لمناسبة هذا المنهج لموضوع الدراسة القائم على رصد آيات الخطاب في القرآن وفرزها وبيان مظاهر هذا الخطاب الرباني، فالمنهج الوصفي هو لعرض معاني الخطاب، وخطاب النخبة، وبيان آراء العلماء فيه، وعرض أنواعه وصيغه، والمنهج التحليلي لبيان أنواع وجماليات أسلوب الخطاب الإلهي للنّخبة مع إظهار بعض الومضات في الإعجاز البلاغي، مشيرين إلى لذّة معرفة تلك المعاني البديعة وأثرها في فهم الخطاب القرآني.

2. معنى الخطاب والنُّخبة:

2.1 خطاب النُّخبة لغةً واصطلاحًا:

الخطاب لغةً: إنَّ كلمة الخطاب هي المصدر السماعي للفعل خاطب يخاطب، وهو قرين المصدر القياسي المخاطبة، والخطاب والمخاطبة لُغَةً: "مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابًا، وهما يتخاطبان"،[2] قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: 37]. و"يعود أصل الكلمة إلى الجذر (خَطْبٌ) وهو الأمر والشأن، وقال الليث: الخطب سبب الأمر. تقول: ما خطبك؟ أي: ما أمرك؟ وتقول: هذا خطبٌ جليلٌ وخطبٌ يسيرٌ"،[3] وإذا ربطنا التعريف اللغوي للجذر الثلاثي (خَطَبَ) فإنّنا نستشفّ منه أنّ خطاب الآخرين قد يكون لأمرٍ مهمّ ذي شأن.

الخطاب اصطلاحًا: قيل فيه الكثير ما بين البلاغيين والنحويين والكلاميين، ولكنّهم اشتركوا في كونه كلامًا للإفهام، فالخطاب عند التفتازاني (793هـ): "هو توجيه الكلام نحو الغير للإفهام".[4] فهو من هذا المفهوم توجيه الكلام من متكلمٍ إلى مخاطبٍ، والغرض منه إيصال رسالة تتضمّن معنىً أو حكمًا أو شرحًا لغامض أو أمرًا أو نهيًا إلى مخاطبٍ مقصودٍ بالكلام، وهدف المتكلم فيه فائدة المخاطَب وإفهامه. وعُرِّفَ الخطاب كذلك بأنه "كلّ نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تمّ فيها".[5] وإذا ركزنا دائرة المعنى انتقلنا إلى معنى الخطاب القرآنيّ: الذي هو كلام الله جلَّ وعلا المنزّه عن المشابهة، الموجّه إلى المخاطبين، وقد قلنا "المخاطبين"؛ لأنَّ الخطاب القرآنيّ متنوّعٌ في التوجّه. وعليه فإنّ المقصود بالخطاب القرآنيّ هو ما تضمّنه المصحف الشريف بين دفتيه كاملاً من كلامٍ ربّانيٍّ يحمل مقاصد رسالة الحق

---

[2] أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، 1414هـ،1: 361; محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1965م، 2: 375.

[3] محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م،7: 111; ابن منظور، لسان العرب، 1: 3600.

[4] سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح، مكتبة صبيح، مصر، د.ت، 1: 22.

[5] أشرف أبو عطايا، يحيى أبو زينة، تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، بحث مقدم إلى مؤتمر الإسلام والتحديات المعاصرة، كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية، 2007م، 6.

جلَّ وعلا للإنسانيّة، وقد عرَّف العلماء القرآن الكريم بتعريفات كثيرة أشهرها بأنه "كلام الله تعالى المنزّل على محمد ﷺ المتَعبَّد بتلاوته"،[6] فالكلام خطاب، والخطاب له هدف ورسالة، والرسالة لها متلق، بالمخاطب أو المتلقي.

النُّخبة لغةً: إنَّ كلمة النخبة هي جمعٌ دالٌّ على الجماعة المختارة؛ حيث يقول صاحب لسان العرب عن هذا الجذر (نَخَبَ) اللغوي "نَخَبَ: انْتَخَبَ الشيءَ: اختارَه. والنُّخْبَةُ: مَا اخْتَارَهُ مِنْهُ. ونُخْبَةُ القَوم ونُخَبَتُهم: خِيارُهم".[7]

النُّخبة اصطلاحًا: إنَّ مفهوم النخبة في معناه الاصطلاحي لا يخرج عن الجذر اللغوي الدَّال على الانتخاب والاختيار، وعليه فقد رأى الأزهري (370هـ) أنّ مصطلح النخبة هو "الجماعة، تختار من الرجال"،[8] فهم الذروة في مجالهم، سواء أكانوا خيار القوم في الحرب أم في العلوم أم في السياسة.

وأكّد نشوان الحميري (573هـ) هذا المعنى بقوله: "النُّخبة: خيار الشيء"،[9] أي: الأفضل في مجاله واختصاصه، وبناء عليه فلم يخرج تعريف القدماء عن المعنى اللغويّ، لكنَّ الأمر تغيّر نسبيًا عند المعاصرين عبر تفريق مصطلح النخبة ضمن العلوم والاختصاصات، فهم قالوا (نخبة سياسية) و(نخبة اقتصادية) و(نخبة علمية)، ولكنّها كلّها تعود إلى الأصل اللغوي من دلالة الاصطفاء والتميّز عن العامة.

ففي الحالة السياسيّة يبرز مصطلح النخبة المثقّفة، حيث ترى نازك الملائكة أنَّ "الكفاح السياسي وظيفة النخبة المثقّفة من القادة والزعماء والاختصاصيين في كلّ أمة"،[10] لأنّ عامة الشعب مشغولون بلقمة العيش وتأمين احتياجات الحياة الأساسيّة، فهي بذلك تحدّد مفهوم النخبة بعيدًا عن عامّة الشعب، وأنّ الأولوية للقيادة تعود للنخبة، أي الطبقة التي تتميّز عن العامّة بميزات عدّة، أهمها الثقافة والاختصاص، وبذلك فَهُم أهلٌ للقيادة لما امتازوا به عن غيرهم.

وبناء عليه نستطيع أن نقول بأنّ النخبة: هي مجموعةٌ مميّزةٌ من الناس مختلفةٌ عن البقيّة بامتلاكها صفاتٍ خاصّة تؤهلها للتميز. ويكون لكلٍّ اختصاصٍ ومجالٍ نخبةٌ خاصّةٌ به، فهناك نخبةٌ سلطويّةٌ، ونخبة اقتصاديّةٌ، ونخبة اجتماعيّةٌ، ونخبة علميَّةٌ. وبجمعنا للمصطلحين نستطيع أن نقول بأنَّ خطاب النخبة المؤمنين في القرآن الكريم هو كلام الله الموجّه لمجموعةٍ مميّزةٍ من الناس تختلف عن البقيّة بميزاتٍ خاصَّةٍ.

2.2 مفهوم الخطاب عند القدماء والمعاصرين:

2.2.1. الخطاب عند القدماء:

---

[6] فهد بن عبد الرحمن الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، مكتبة الملك فهد، الرياض، 2005، 23.

[7] ابن منظور، لسان العرب، 1: 752

[8] الأزهري، تهذيب اللغة،7: 188.

[9] نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1999م، 10: 6526.

[10] نازك صادق الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، 1962م، 301.

فهمَ القدماءُ الخطاب من معناه المعجمي المستند إلى (خَاطَبَ- يُخَاطِبُ- مُخَاطَبَةٌ -خِطَابٌ) كما ورد في القرآن الكريم، وظهور علوم اللّغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وتطورها مرتبط بنزول القرآن والسعي لفهمه وخدمته،[11] فكلّ معنى لغوي قديم مرتبطٌ بما ورد في القرآن أولاً، ويحلُّ الشعر العربي القديم ثانيًا.

فكلمة الخطاب وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، قال تعالى:﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ :37]، فالطبري(310ه) والقرطبي (671ه) يريان أنّ الخطاب هنا هو "المخاطبة والكلام والسؤال عن الشفاعة"،[12] وكذلك هي دلالته في قوله تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[ص:23]، أمّا كلمة الخطاب في موقعها الثالث في قوله تعالى:﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص:20]، فهي هنا بمعنى فصل الحكم إذ مال أغلب المفسّرين ومنهم الثعلبي (٤٢٧ه) نقلًا عن الصحابة والتابعين إلى أنّها هنا بمعنى "علم القضاء والفهم به، وحلّ الخصومات وفصلها".[13]

ومن هنا نجد أنَّ هذا المصطلح عند القدماء من منظومتهم الكلاميّة البديهيّة لا يحتاج إلى شرح أو بيان في دلالته وفهمه، ودليل ذلك أنّنا إذا طالعنا كتب الأقدمين في كلّ اختصاصاتهم لوجدناهم استخدموا هذه الكلمة ومشتقاتها من الفعل الرباعي بنفس المعنى الذي وجدناه.

وقد أورد الطبري في تفسيره: "كان معلومًا أنّه غير جائز أن يخاطب جلّ ذكره أحدًا من خلقه إلا بما يفهمه المخاطَبُ، ولا يرسلَ إلى أحدٍ منهم رسولًا برسالة إلا بلسانٍ وبيانٍ يفهمه المرسَلُ إليه؛ لأنّ المخاطب والمرسَلَ إليه، إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه، فحالهُ -قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعدَه- سواءٌ، إذ لم يفدْه الخطابُ والرسالةُ شيئًا كان به قبل ذلك جاهلًا. والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابًا أو يرسل رسالةً لا توجب فائدة لمن خُوطب أو أرسلت إليه، لأنّ ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك مُتَعالٍ. ولذلك قال جلّ ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]".[14]

وإذا دققنا في مفهوم الخطاب الذي أورده الطبري في نصّه السابق نجد أنه ألبس الخطاب المعنى اللغوي الذي أوردناه سابقًا عن الكلام وإيصال الفهم، ونستشف من كلامه أيضًا أنّ القرآن الكريم هو وعاء الدعوة الإسلاميّة، وأنَّ كلام الله في خطابه إنّما هو في مجمله خِطابٌ غرض التوضيح والإفهام والهداية.

---

[11] انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، 1: 9.

[12] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار التربية والتراث، مكة، د.ت، 24: 175; أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م،19: 186.

[13] الطبري، جامع البيان،21: 172; أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة، 2015م، 22: 482.

[14] الطبري، جامع البيان،1: 11.

وإذا أحلنا المسألة إلى أهل العقيدة لوجدناهم متّفقين مع المفسّرين على معنى كلمة الخطاب ومشتقاتها، فنجد رأس الأشاعرة الإمام الأشعريّ (324هـ) يقول في إبانته: "والله تعالى إنّما خاطب العرب بلغتها، وما نجده مفهومًا في كلامها ومعقولاً في خطابها".[15] وإذا نظرنا في عبارة أبي الحسن سنجد أنّه أورد كلمة (خاطب) مع اللّغة كما هو معلوم لنا عند أهل اللغة بأنّ اللّغة هي المطيّة التي تستخدم لإيصال المراد والغاية وهي الفهم، وهذا يؤكّده تسلسل جملة الأشعري بقوله (مفهومًا) و(كلامها)، فالكلام هو الوعاء الذي يستخدم لإيصال الفهم، وهنا تتمّ فائدة الخطاب.

وورد الخطاب عند القدماء على أنه "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"،[16] وسار أغلب العلماء على ذكر هذا التعريف في كتبهم، لبلاغته وإيجازه، بحيث فهمه العامّة والخاصّة، وترسخ في سياقهم اللغوي المعنى المراد منه.

وكلما استطال بنا الزمن وجدنا بعض المتأخرين بدأ يتوسع قليلًا في شرح معنى الخطاب ويدّقق في ألفاظه ليضع له عبارات أكثر تفسيرًا، كقول الآمدي (632هـ) في معرض حديثه عن الحكم الشرعي وأقسامه: "هو اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه".[17] فالخطاب عند الآمدي هو اللفظ الذي اصطلح عليه واتفق، فلا بدّ من الاصطلاح فيه حتى تكون الغايّة منه مرجوة، كما أنَّ الهدف منه الإفهام وإيصال المراد، وهو ما اتفق فيه مع القدماء. ولا بدَّ في تعريف الآمدي من شخصٍ جاهزٍ للفهم، وكذلك لا بدَّ من وجود القصد من هذا الخطاب من طرف المُخاطِب، وكذلك وجود الرسالة. وبناء عليه يظهر لنا أن القدماء والمتأخرين اتفقوا على مسألة الفهم والقصد والرسالة، وزاد المتأخرون الاتفاق والتواضع والمتلقي، ومردّ هذه التفصيلات توسّع العلوم وتطوّر اللّغة واحتياج بعض العلوم في دقائقها إلى دقّة في طرح المصطلح، خاصّة علم الكلام والأصول والمنطق، فهل اكتفى مصطلح الخطاب توسعًا!!؟

2.2.2. الخطاب عند المعاصرين: الحقيقة أنَّ تقدم الأيام وتطوّر اللّغة والترجمة ونقل الآداب الغربيّة في العصر الحديث أفرز تعريفات أخرى للخطاب توزّعت بحسب المجالات، فهناك الخطاب الروائي والخطاب الشعري والخطاب السردي والخطاب السياسي وإلى ما هنالك من تقسيمات فرضتها المفاهيم الجديدة، وهذه التقسيمات فرضت أشكالًا أخرى لمفهوم الخطاب، وهي مستقاة من الدراسات اللسانيّة أو الفلسفية الغربيّة.

وإذا جعلنا مفهوم الخطاب العربي القديم مفهومًا لغويًا أصوليًا مرتبطًا باللّغة والقرآن، فإنَّ مفهوم الخطاب عند المعاصرين هو غربيٌّ بحتٌ مرتبطٌ بالفلسفة، وسنورد تعريفات ترجمها الأدباء والنّقاد العرب من الأبحاث الغربيّة.

فقد أورد سعيد يقطين ثلاثة تعريفات للخطاب، إذ يقول: "نجد أصحاب معجم اللسانيّات يقدّمون لنا ثلاثة تحديداتٍ للخطاب، فهو أولاً: يعني اللّغة في طور العمل، أو اللسان الذي تتكلّف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف الكلام بتحديد "دوسوسور"، وهو يعني ثانيًا: وحدة التّوازي أو تفوّق الجملة ويتكوّن من متتالية تشكل مرسلةً لها بدايةٌ

---

[15] أبو الحسن علي بن أبي موسى الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: فوزية حسن محمود، دار الأنصار، القاهرة، 1397م، 45.

[16] الزبيدي، تاج العروس،1: 70.

[17] أبو الحسن سيد الدين علي الثعلبي الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1402هـ،1: 95.

ونهايةٌ، وهو هنا مرادف للملفوظ، أمّا التحديد الثالث فيتجلّى في استعمال الخطاب لكلّ ملفوظٍ يتعدّى الجملة منظورًا إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل".[18] ومن خلال ما قدّمه لنا سعيد يقطين في معنى الخطاب نرى شكل النحو الذي نحاه الكثير من الباحثين العرب في استقاء المعاني من الغربيين في تحديد مفهوم الخطاب، وكيف انتقلوا إلى معاني الخطاب الأكثر تحديدًا من خطاب سردي أو شعري أو غيرها من المفاهيم التفصيليّة التي أفرزتها الدراسات الحديثة.

والخطاب كما أورده يقطين نقلًا هو اللّغة العمليّة، وهي عمليّة لغويّة تنجز لتحقيق هدف، ولا بدّ فيها من المُخاطِب الذي ينتج هذه العملية. كما أنّه قد أشار في التعريف الثّاني إلى أنّ الخطاب هو متتاليات من الجمل، وهو يفوق الجملة في بنيانه، ويوازي في معناه الكلام الملفوظ الذي له مبتدأ ونهاية، فما دامت هذه المتتاليات أكبر من الجملة ولها بداية ونهاية وتوازي الكلام المقال فهو بالضرورة ذو فائدة وهدف.

ول "مانغونو" رأي في هذا الموضوع، إذ يرى في تقسيمه للخطاب بأنَّه "خطاب جملة وخطاب ملفوظ وخطاب لغة؛ أمّا خطاب الجملة: فهو يتكوّن من سلسلة لغويّة قوامها تسلسل من الجمل. أمَّا الخطاب الملفوظ: فهو يشكّل وحدة اتصالٍ مرتبطةٍ بظروف إنتاجٍ معينةٍ، أي كل ما هو من قبيل نوعٍ خطابيٍ معيّنٍ، كالنِقاش المتلفز والمقابلة الصحفيّة. لكنَّ خطاب اللّغة ينقسم إلى قسمين: خطاب لغة من حيث هي نظامٌ من القيم المقدّرة مخالفة للخطاب واستعمال اللّغة في سياقٍ بعينه، الذي يحدّد في الوقت نفسه قيمه أو يستثير قيمًا جديدةً، وخطاب لغة من حيث هي نظامٌ مشتركٌ بين أفراد الجماعة اللغويّة مخالفةٌ للخطاب من حيث هو استعمالٌ محدّدٌ لهذا النظام، وقد يتعلق الأمر بتموقعٍ في حقلٍ خطابيٍ أو بنوعٍ خطابيٍ أو إنتاج شريحةٍ أو صنفٍ من المتكلمين، أو بوظيفةٍ لغويّةٍ".[19] ونرى ممّا سبق أنَّ "مانغونو" حدَّد الخطاب كوسيلة تواصلٍ قوامُه اللّغة وتسلسل الجمل، والخطاب اللغويّ عنده يخضع للسياق ويقدم قيمًا أو يستثيرها، وله وظيفةٌ وجمهورٌ وأنواع.

ولعلّنا رأينا الفرق الكبير في صياغة مفهوم الخطاب بين الشرق والغرب، أو بين القدماء والحداثيين العرب في سبك الجملة وأداء المفهوم للمعنى، ولعل لاختلاف الثقافة والدراسات اللغويّة بين العرب والغرب دورًا في ذلك الفرق، والمشكلة الكبرى في رأينا هي الترجمة _وغيرها_ التي قد تحرم غير ابن اللّغة دقّة المفهوم اللغوي المقصود، فلن يشعر الأجنبي مثلًا بجمال بيت شعرٍ عربيٍ سحرَ لُبَّ القرّاء والمستمعين حال استماعه له مترجمًا، لأنّ الترجمة تقضي على روح اللّغةِ وبلاغتها، ناهيك عن الشعور اللغويّ والشعريّ، كما أنَّ تناول الموضوع من زوايا مختلفة يؤدّي إلى هذا التوسّع في مفهوم الخطاب.

وإذا أردنا أن نوجد مفهومًا مصطلحيًا للخطاب يجمع بين زوايا الآراء عبر استطالة الزمن فيمكن أن نقول بأنّ الخطاب: هو تسلسل من الجمل المفيدة التي يتناول فيها المخاطب من بدايته إلى نهايته موضوعًا ذا شأن يستهدف فيه المتلقي قاصدًا الإفهام، وبذلك نكون قد قدّمنا شروط وجود الخطاب من مرسل إلى متلقٍ وهدف وقيمة وتسلسل يفوق الجملة.

---

[18] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة للنشر والتوزيع، بيروت، 1997م، 21.

[19] دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008م، 3839.

3. نخبة المؤمنين في القرآن الكريم:

نزل القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ للنَّاس كافَّةً، وقد تنوّع خطابه وتعدّد أسلوبه، ولكنّنا قبل أن نبيّنَ أساليب الخطاب القرآني وتعدّده لا بدَّ لنا أن نوضح مَنْ هم النخبة المؤمنين في القرآن الكريم الذين اختصّهم الله عن غيرهم، وبعد الإحصاء والتدقيق وجدناهم كما يأتي:

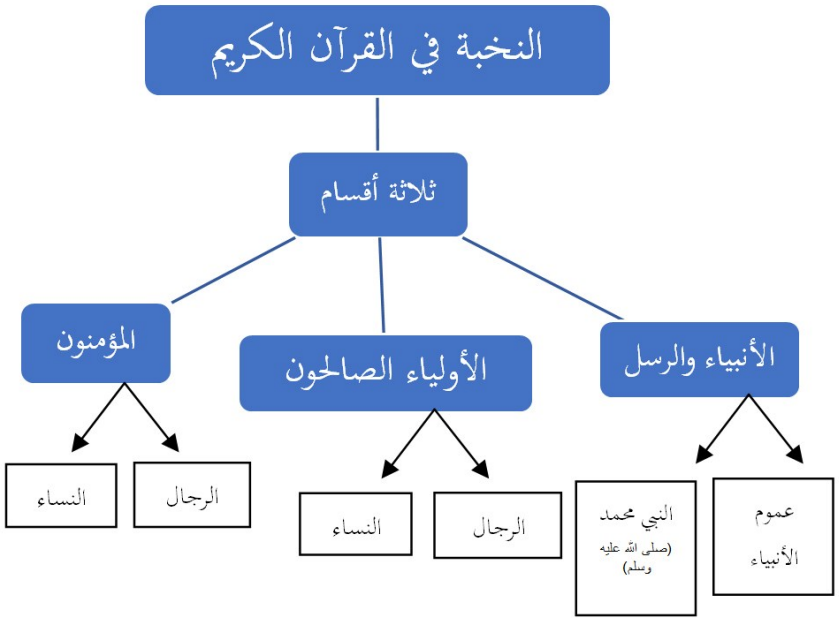

وقد اخترنا هذه الفئات من البشرية بحكم أنَّها الفئات الأقرب إلى الله تعالى عبادة ومحبة، فاختيار الله للرسل والأنبياء دليل على أفضليتهم على بقية البشر، ولولا ذلك لما اختارهم لهداية البشرية، إذ إنهم خير مثال يحتذى في العمل والأخلاق وتطبيق أحكام الشريعة. وأمّا ورثة النبوة من الصالحين والأولياء الذين يحملون الإرث النبوي في أعمالهم وأخلاقهم، وفي أنسابهم هم عادة الأفضل بين الناس تصرفًا وسلوكًا، وكذلك من تبعهم من المؤمنين الذي اختاروا أن يكونوا في صف الله ورسله.

3.1. سمات خطاب النخبة المؤمنين في القرآن الكريم:

إنَّ تنوَّعَ المخاطبين يستدعي منطقيًا تنوَّعَ الأسلوب والسمات المصاحبة لهذا الأسلوب، وهذا الحال سائرٌ في خطابات النَّاسِ فيما بينهم، إذ يخاطَبُ كلُّ إنسانٍ على قدر مكانتهِ، وعلى تقسيمنا للنخبة المؤمنين سنعرض تفصيل سمات الخطاب مبتدئين بصفوة البشر الذين اختارهم الله وسيلة لإيصال رسالته للناس.

أولًا: خطاب الأنبياء والمرسلين:

تعدُّ طبقة الأنبياء والرسل من أعلى الطبقات البشرية التي خاطبها الله عزّ وجلَّ مكانة عنده، لأنَّهم الواسطة في الشرائع السماوية، وصلة الوصل بين صاحب القول الحق وبين البشر، فقد ملك هؤلاء صفات وخصائص تميزهم عن محيطهم، فما الأنبياء والرسل إلا مشاعل نور، وبقع بيضاء مضيئة اختارها الله لحمل رسالة الحق والتوحيد، ونشر الإنسانية الحقة التي أرادها الله لينعم الإنسان حياة رغيدة في الدارين.

وهنا نتساءل ما الصيغ التي خاطب بها الله عزَّ وجلَّ الأنبياء؟

إنَّ الخطاب الربّاني للأنبياء والرسل في القرآن الكريم هو حكاية عن أحداثٍ مضت، فلو أحصينا مواطن النداء الموجه إلى الأنبياء والرسل لوجدنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ خاطب الرسل بأسمائهم المباشرة دونما استخدام لصفة النبوة أو الرسالة، فقد قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ [البقرة:33]، وكذلك الحال مع سيدنا نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46]، وهو الأمر ذاته مع سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات:104]، وهذا هو الحال مع كلّ الأنبياء والمرسلين، إلا أنه في موضع واحد قد تمّت فيه مخاطبة الرسل عامة بصفتهم، وهو أمر لا بدَّ منه، لأنَّ الخطاب جماعيٌّ، ولا يوجد لفظ مشترك ليُنادى به الرسل سوى هذه الصفة، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]، فقد خاطب الله تعالى الرسل بنفس الخطاب الذي خاطب به المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات الدنيا، والسعي في طريق العمل الصالح، أي أنَّ متعة الدنيا من الطيبات لا تتعارض مع التقوى والعمل الصالح، وهو بذلك أيضًا يوحّد حال الرسل بحال المؤمنين. ولكن هذا وجه واحد من الرأي، إذ أورد الطبري آراء مختلفة في قصد النداء في هذا الموقع، ورأى أنّ الله تعالى: "عنى بذلك النبي ﷺ"،[20] وأورد في موضع آخر بأنَّ المقصود في هذا الموقع "النبي عيسى عليه السلام".[21]

ولو نظرنا إلى مسألة مخاطبة الأنبياء بأسمائهم من زاوية أوسع لأدركنا أنَّ هذا الأمر لا مفر منه في معرض الحكاية والقصة، فتلك الوقائع والحوارات إنما هي من قبيل القصة الإخبارية ومن الصعب أن ينادى رسول من أولئك الرسل بصفة الرسالة أو النبوة خوف اختلاط القصد وضياع بوصلة تحديد مقصود النداء، فالنداء بالاسم المباشر أوضح وأسلم للمتلقي في بيان القصد، لئلا يختلط عليه الأمر، فكلهم أنبياء الله ورسله، والنداء باسم كل نبي في معرض القصة يحصر زاوية ذهن المتلقي إلى القصة مبتعدًا عن غيرها.

ولعلنا إذا نظرنا قليلًا إلى علم المعاني لوجدنا كما هو مشهور فيه أنَّ النداء بأداة النداء "الياء" إنما يكون للبعيد عادة،[22] لكنها تخرج عن معاني البعد لإظهار الأهمية، فهؤلاء الرسل ذو أهمية عند الله عزَّ وجلَّ، وقد اختارهم لإيصال رسالة الإسلام وتحمل مسؤولية نشر الدعوة، وأداة النداء تخرج عن معنى البعيد إلى معنى الأهمية كما سيمر معنا.

وهنا يظهر لنا سؤال مهم؛ هل هناك فرق بين الأنبياء والرسل في الخطاب؟ الجواب: نعم، فكلنا نعلم أولي العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، وقد قال مجاهد وعطاء: "أولو العزم من الرسل خمسة، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلى الله عليهم"،[23] فهؤلاء الرسل كانت لهم مكانة مختلفة عن بقية الرسل لما تعبوا في الدعوة ولما لاقوه من أممهم من عذاب وضيق وصبرهم على ذلك. وقد قال تعالى في ذلك: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:253].

---

[20] الطبري، جامع البيان، 4: 191.

[21] المصدر السابق، 19: 40،41.

[22] انظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دار الفرقان، إربد، ط4، 1997م، 163.

[23] أبو جعفر النحاس، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة، 1409هـ، 6: 455.

وقد تحققت أفضلية نبينا محمّد ﷺ على بقية الأنبياء في مواضع عدّة أشهرها ماورد في سنن ابن ماجه (1440/2): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ».[24] ونصوص الأفضلية كثيرة جدًّا، سنكتفي ببعضها، حيث ستظهر لنا كرامة النبي ﷺ عند الله في معرض ذكر فرق الخطاب.

ولا بدَّ لنا في هذا المعرض أن نذكر خطاب المولى عزَّ وجلَّ للنبي ﷺ، فهو النبي المرسل لهذه الأمة، وأنزل عليه هذا الكتاب المبين، وخصَّه عن غيره من الأنبياء بصيغ الخطاب، ولم نجد له نداء باسمه في القرآن بل كان ينادى بصفته (يا أيها الرسول، يا أيها النبي) مع اختلاف أشكال هذا الخطاب، ومنه على سبيل الذكر لا الحصر:

1-خطاب النبي المباشر لنفسه ليقول ما يعلّم نفسه، ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 1-2]، أي: قل يا محمّد، وقد أنزلت هذه السورة مع سورة الناس بعد السحر الذي تعرض له النبي ﷺ، فطلب منه أن يقرأ هذه السورة ليزول عنه ما أصابه،[25] فهي قراءة له للاستشفاء والتحصين.

2-خطاب النبي ﷺ ليجيب عن نفسه في مسألة اعترضته في الحياة، فهو تعليم له بكيفية الجواب، ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1-2]، فهذه السورة نزلت تعليمًا للنبي ﷺ ليرد فيها على مقترح قريش بأن يعبد ما يعبدون، وأن يعبدوا هم الله، فأنزل الله هذه السورة،[26] فالمهمة هنا ليست الدعوة، بل تعليم للنبي لكيفية الجواب؛ أي قل أنتَ هذا الكلام وكأنه كلامك. ولو كانت للتبليغ والدعوة لكانت الصياغة (قل يا أيها الكافرون لن يعبد محمّد ما تعبدون).

3-خطاب النبي ﷺ لتعليم غيره والردِّ عليهم، أي: ردًّا على سؤال، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، فقد نزلت هذه السورة ردّا على المشركين الذين طلبوا نسب الله عزَّ وجل تعالى عمّا يصفون.[27] فكان خطابًا للنبي ليبلغهم دون اهتمامٍ بهم، جوابًا على سؤالهم.

4-خطاب النبي ﷺ من أجل تبليغ غيره أمرًا يحتاجونه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53]، فهذا النداء لتبليغ المسيئين بأن يتوبوا وأنَّ الله يغفر ذنوب من لجأ إليه وتاب، فلم يقل مباشرة (يا عبادي) بل كان النبي هو الواسطة، فهو تبليغ للمسرفين.

5-خطاب النبي ﷺ ويقصد به غيره؛ كأمته مثلًا تعليمًا لها وشرحًا للأحكام، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:1]، وقد اختلف في القصد من الخطاب، فقد أورد القرطبي آراء مختلفة في

---

[24] أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د.ط، د.ت، 2: 1440هـ، رقم: 4308.

[25] القرطبي، تفسير القرطبي، 20: 253.

[26] المصدر السابق، 20: 225

[27] المصدر السابق، 20: 246.

ذلك، فمنهم من يرى "أَنَّ الْخِطَابَ لَهُ وَحْدَهُ وَالْمَعْنَى لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، ومنهم من يراه للنبي ﷺ وحده والجمع للتعظيم،[28] وقد رأى السمعاني أن "خطاب النبي هو خطاب للأمة".[29]

6-خطاب النبي ﷺ والمراد به غيره، كقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 60]، فالخطاب هنا للنبي ﷺ، والمعنى "لا تكن من الشاكّين فيما قلنا لك،[30] "والمراد أمته، لأنّه ﷺ لم يكن شاكًّا في أمر عيسى عليه السلام".[31] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس:95].

7-خطاب النبي ﷺ كنصيحة ليفعلها، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:28]، إذ تأذى ببعض ما سمع من زوجاته، فقدم له نصيحة ليفعلها في هذا الموقف الطارئ، وذلك بأن يعرض عليهن أن يخترن خيار متاع الدنيا والتسريح بإحسان أو الرضا بما قسم الله للنبي والعيش معه.[32]

8-خطاب العتاب للنبي ﷺ، كما في سورة عبس بقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: 1-3]، وفيه كلامٌ كثيرٌ سنورده في قسم الجماليات.

وهذا التنوع والكثرة في الخطاب للنبي ﷺ راجع إلى أنَّ القرآن الكريم نزل عليه، وكثير من الخطاب القرآني كان له، وبعضه كان رسالة للناس والنبي ﷺ كان وسيلة لإيصال هذه الرسالة.

وخلاصة القول في هذا القسم أنَّ الله سبحانه وتعالى نادى الأنبياء بأسمائهم لا بألقابهم لأنَّ النداء كان في معرض القصص؛ حفظًا للمتلقي من الخلط والتوهم، وكانت أداة النداء (يا) حاضرة لبيان مكانة المتلقي وعلو منزلته، بينما كان خطاب النبي محمد ﷺ بالصفة (الرسول، النبي) إكرامًا له ودلالة على الاختصاص: كما أنه كان متنوعًا من حيث الغرض والإفادة.

ثانيًا: خطاب الأولياء والصالحين:

وهو خطابٌ لأهل الصلاح ممن لم تثبت نبوتهم، إذ ذكر الله عز وجل هذه الفئة وخاطبهم، وسنقسمهم إلى قسمين: خطاب للرجال وخطاب للنساء.

خطاب الرجال الصالحين: وهؤلاء جاء خطابهم بصورة العموم بدون ذكر أسماء، وقد يدرج تحت هذا القسم نداء (يا أيها الذين آمنوا) لكننا أفردنا قسمًا خاصًّا لهذا الخطاب. وبعض هذا الخطاب جاء بصيغة الخصوص للذكور بدون

---

[28] المصدر السابق، 18: 148.

[29] منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني أبو المظفر، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار وطن، الرياض، 1997م،5: 457.

[30] الطبري، تفسير الطبري، 6: 472.

[31] المصدر السابق، 4: 103.

[32] المصدر السابق، 14: 162، 20: 251.

ذكر الاسم، وبدون أداء خطاب مباشر من الله تعالى لهم، بل فيه إشارة إليهم، وقد نعرف المراد عبر أسباب النزول، وأشهرها قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:259]، فالمقصود بهذا الموضع هو العزير كما أورد المفسرون، والعزير من الصالحين الذين لم يصرحّ بنبوّتهم في القرآن الكريم، فكان الخطاب هنا بدون ذكر اسمه، مع أنَّ الأحاديث الواردة في ذكر اسمه كثيرة،[33] وقد تمَّ إغفال الاسم وحذفه لعدم أهمية ذكر اسمه وبيان أهميّة قدرة الله على المنكرين، وإثباتًا لنبوة النبي ﷺ لليهود الذين يعرفون هذه القصة فقط، كما لبيان ذم الفعل.[34]

ومنها خطاب بشكل غير مباشر أيضًا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:22]، إذ نزلت في سيدنا "أبي بكر عندما منع عطاء مسطح"،[35] عندما خاض لسانه في حديث الإفك على ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد جاء الأمر هنا بلام الأمر مع صيغة الجماعة للإرشاد، إذ المخاطب الصالح واحد أرشده الله بهذا الأمر له ولمن مثله بأن يتابعوا في عملهم الصالح ولا ينقطعوا عنه لأنه الطريق الأمثل لنيل رضا الله ورضوانه. وقد أكّد هذا الأمر الاستفهام التقريري (ألا تحبون..) إذ إنَّ الله عزّ وجل يقرّر المخاطب بشيء ثبت عنده وهو أنه يريد أن يغفر الله ذنوبه، "لكنه يخرجه بصورة الاستفهام؛ لأنه أوقع في النفس وأدلُّ على الإلزام".[36]

خطاب النساء الصالحات: وهنَّ قلائل أيضًا، وأشهر خطاب من الله عن طريق الوحي حكايةً خطاب السيدة مريم عليها السلام في عدة مواضع، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:45]، فهو ليس خطابًا مباشرًا، بل رسالة من الله عن طريق الملائكة، "فأضافت الملائكة البشارة إلى الله تعالى وكان الله هو مبشرها، وإن كانت الملائكة خاطبوها".[37] وقد تمَّ النداء بالاسم للتعريف والتوضيح، واستخدمت الجملة الخبرية المؤكدة لوقوع السيدة مريم في شبهة وتردد من الرسول الذي حمل لها رسالة الله، فكان التوكيد لإزالة الشبهة؛ حيث اكتفي بمؤكد واحد لإيمان وتقوى المرأة المخاطبة.

ومنه أيضًا خطاب زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام عن طريق الملائكة: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]، إذ كان الخطاب هنا بطريق الملائكة، والملائكة تنقل خطاب الله إلى من أراد من عباده.

---

[33] المصدر السابق، 5: 439- 441.

[34] المصدر السابق،5: 442.

[35] المصدر السابق،19: 136.

[36] عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، 190.

[37] أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م، 2: 18.

ومنه أيضًا خطاب أم سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص:7]، وقد اختلف في معنى الوحي هنا، فمنهم من قال بأنه "إلهامٌ ومنهم من قال في منامها والبعض قال أتاها جبريل".[38]

ومن الخطاب المباشر للنساء الصالحات خطاب نساء النبي ﷺ بالجمع، كقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: 32]، حيث ورد هذا النداء مرتين في القرآن الكريم، وهو نداء تشريف بالإضافة إلى النبي ﷺ، فبتعريفهنَّ بالإضافة نلن التشريف، ولأهمية الموضوع الذي جاء بعد هذا النداء، إذ بيّن لهنَّ رب العزّة أنهن يختلفن عن بقية نساء الدنيا بحكم موقعهن المكاني والمعنوي، فكانت الأوامر الإلهية مباشرة لهنَّ وبشكل غير مباشر لبقية النساء المؤمنات اللواتي تنطبق عليهن الأحكام الشرعية التي نزلت بحق نساء النبي ﷺ، وإن كنَّ هؤلاء الأخيرات هن الأولى بالتطبيق لمكانتهن ولكونهن قدوة لبقية النساء اللواتي يسعين إلى الاقتداء بالنموذج الأمثل لجنسهن؛ لخصوصية أحكامهن واختلافها عن أحكام الرجال.

وقد وردت أداة النداء هنا لمفاطنة النساء للخطاب القادم بعد النداء وجذب الانتباه للاحق الكلام من أوامر ونواهٍ.

ثالثًا: خطاب المؤمنين:

وهم أكثر من خوطب في القرآن الكريم مباشرة، وكان الخطاب لهم مباشرةً دون واسطة، والصيغة التي جاءت في خطابهم (يا أيها الذين آمنوا) والتي تشمل الرجال والنساء، فقد وردت هذه الصيغة 89 مرةً في القرآن الكريم، وهم الذين تشرفوا بهذا الخطاب، أمّا الكفار فقد خوطبوا بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [التحريم:7] مرة واحدة فقط، والخطاب لهم ليس في الدنيا، بل رواية عن "خطاب سيحدث في الآخرة".[39]

وورود صيغة نداء المؤمنين بهذا العدد يعطينا كمَّ المطلوب منهم من أحكام وأوامر، وما تحمل تلك الخطابات من دلالات قد لا يسعنا المقام لتفصيلها، وإنما سنكتفي بالصيغة التي استخدمت فيها الأداة (يا) التي خرجت من معنى البعد إلى لفت الانتباه والدعوة إلى التركيز فيما سيقدم لهم من أوامر ونواه ونصائح تصلح حالهم في الدنيا وتنجيهم في الآخرة، وقد أكد هذا التنبيه (ها) المتصلة بالنكرة المقصودة (أيُّ)، فجملة النداء هذه هي جملةٌ إنشائيةٌ طلبيةٌ، ونداءٌ يفيد تنبيهَ المنادَى إلى أمرٍ عظيمٍ، وسنعرض جماليات هذا النداء فيما بعد.

3.2. خصائص وجماليات أسلوب خطاب نخبة المؤمنين في القرآن الكريم:

يتسم الأسلوب القرآني عامة بسمات بديعة وخصائص فريدة جعلت أهل اللغة والبلاغة يلجؤون للاحتكام إليه في الحكم على جودة الكلام، وكان أسلوب خطابه مميزًا عن الخطاب الأدبي بكثير من الصفات، وسنعرض فيما يأتي بعضًا من خصائص وجماليات أسلوب خطاب الله تعالى للنخبة في القرآن الكريم:

1-تشريف النبي محمّد ﷺ على غيره من الرسل، وكان ذلك بأن الله عزَّ وجلَّ لم يخاطب النبي ﷺ باسمه قط، بل خاطبه بصفة التشريف، فالنداء بصفة الرسالة والنبوة أشرف وأعلى رتبةً من الخطاب بالاسم المجرد، ومثاله

[38] المصدر السابق، 13: 250.

[39] المصدر السابق، 23: 492.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]، أو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: 67] ، وبحسب إحصائنا للنداء بـ(يا أيها الرسول، يا أيها النبي) فقد وردت الصيغة الأولى مرتين فقط، بينما الصيغة الثانية وردت 13 مرّة، وورد نداؤه بوصف آخر أيضًا نحو (المزمل والمدثر) مرتين فقط، ولم نرَ أنه قد نودي باسمه، بخلاف بقيّة الأنبياء والرسل الذين نودوا بأسمائهم لا بصفاتهم، وقد أورد البيهقي في دلائل النبوة "أَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ يُخَاطِبْهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا بِالنَّبِيِّ أَوِ الرَّسُولِ، وَدَعَا سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَسْمَائِهِمْ وَحِينَ دَعَا الْأَعْرَابُ نبينا ﷺ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِتَعْظِيمِهِ وَبِتَفْخِيمِهِ".[40] وبحسب الدراسة التي أجريناها وجدنا أنه قد ورد ذكر اسم (محمّد) أربع مرّات في معرض الإخبار عنه.

2-الدِّقَّة في الخطاب؛ إذ يتميز أسلوب الخطاب القرآني عامة بهذه الصفة، ولا نكاد نرى أي موضع في القرآن الكريم إلا وقد امتاز بهذه الميزة، فقد ورد خطاب النبي ﷺ بصيغتين (النبي) و(الرسول)، ولم يكن هذا النداء عبثًا- وحاشا لله العبث- بل كان في غاية الدِّقَّة، فصيغة الرسول كانت في معرض الدعوة والتبليغ كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:67]، فالرسول وظيفته التبليغ وقد ناداه بصفة الرسول، أمّا في صيغة (النبي) فهي في معرض وظيفة النبوة كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64]، فالسياق هنا فيه دقة في الألفاظ؛ لتناسب النداء والخطاب مع سياق الآية.

ومنه أيضًا الفرق بين (أنزلنَا إِلَيْك) و(أنزلنا عَلَيْك)، فكل مَوضِع خَاطب النَّبِي ﷺ بقوله ﴿إِنَّا أنزلنَا إِلَيْك الكتاب﴾ فَفِيهِ تَكْلِيف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:105] . وَإِذا خاطبه بقوله {أَنا أنزلنَا عَلَيْك} فَفِيهِ تَخْفِيف، كقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2].

3-شرح المهمة الوظيفية للنبي ﷺ، وذلك جاء في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:45-46]، فقد ذكر الله لنا أثناء الخطاب المهام الوظيفية للنبي ﷺ، فهو شاهدٌ على هذه الأمة ومبشرٌ لها بالخير والجزاء الحسن، ومنذرٌ للكافرين والمنافقين من عذاب النار، كما أنّه يدعو الأمة إلى طريق الله والصراط المستقيم بإذن الله وأمره، وهو النور الذي أرسله الله للبشرية ليخرجها من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم. وهو الدليل الذي يقتدي به الصالحون في طريقهم إلى الله تعالى.

4-النبي ﷺ وسيلة الخطاب الإلهي، فهي من أشرف التشريفات، فدائمًا ما يكون ﷺ هو المتوسط في الخطاب، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:31] فالنداء كان للنبي ﷺ في رسالة إلى المسلمين، ولم يقل الله عزَّ وجلَّ (يا أيها المسلمون إن كنتم تحبون الله فاتبعوا الرسول)، بل كان النبي الواسطة في هذا الإخبار، ومردُّ ذلك إلى تعظيم قدره عند الله، وضرورة أن يكون باب الله الذي يصل العبد من خلال طاعته إلى الله. وقد أورنا في فقرةٍ سابقةٍ حالات الخطاب الموجّه للنبي ﷺ ومعاني (قل).

---

[40] أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، 5: 499.

5-تمثيل النبي ﷺ لأمته في الخطاب، فعندما يخاطب الله الأمة من طريق نبيها في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:1]، فهو بدأ بالنبي وانتقل إلى الجمع في دلالة على أنَّ الخطاب لجماعة المسلمين، فجعل النبي معبرًا عن أمّة وممثلًا لها فهذا تشريفٌ لها، فإذا قال:(إذا طلقت) فإنّه يعمله كيفية الطلاق، بل قال: (طلقتم) كأنّ النبي نائب عن الأمة في الجواب، فإن سألك أحد من الأمّة فأجبه.

6-انتهاء الخطاب المباشر من الله تعالى للنخبة عند مستوى المؤمنين، فلماذا لم نرَ نداءً للمسلمين؟ فقد رأينا كثيرًا من نداء (يا أيها الذين آمنوا) ولم نر نداء (يا أيها الذين أسلموا) أو (يا أيها المسلمون)، وإذا أردنا أن نحلِّل سبب هذا الأمر فلا بدَّ لنا من فهم معنى الإيمان والإسلام والفرق بينهما، فالإسلام إنما هو لفظ مع حركات وأعمال، بينما الإيمان هو يقين جازم واستقرار في القلب يستدعي تلقائيًا العمل بالجوارح، فالسبب إذن أنَّ من أسلمَ قد يكون إسلامه ظاهرًا، ولما يستقرّ في قلبه الإيمان، وهو بذلك أبعد من الخطاب المباشر من الله، بل يكون الرسول هو الوسيط في الخطاب كما في قوله تعالى: قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:1] فالأحكام الشرعية من هذا القبيل تكون من واسطة النبي ﷺ، وهي أمور معاملاتية. فلا حاجة للنداء المباشر إذ لن يكون لنداء الله عزَّ وجلَّ عليهم تأثيرٌ. وأمّا المؤمنون فاستحقوا الخطاب المشرّف المباشر من الله تعالى، لأنَّ الإيمان وقر في قلوبهم وهم جاهزون معنويًا ونفسيًا وبدنيًّا لتلقي الأوامر الإلهية المباشرة.

7-رفع شأن المؤمنين بصيغة (يا أيها الذين آمنوا)؛ فإننا نرى أنَّ هذا الأسلوب شائع في القرآن الكريم، وقد ورد 89 مرة كما وجدنا أثناء المسح، ولكنَّنا لم نلحظ استخدام القرآن لنداء (يا مؤمنون) أو (يا أيها المؤمنون)، فلم يكن الخطاب المباشر لهم بهذه الصيغ، بل كان بصيغة اسم الموصول وهنا لمحة لغويّة بلاغيّة، ألا وهي أنَّ دلالة اسم الفاعل (المؤمنون) هي دلالة وقوع وليست دلالة ثبات؛ "فدلالته على التجدد أغلبية ومن غير الغالب"،[41] بعكس الفعل الماضي الذي دلالته المضي والانتهاء، فكيف إذا كان الوصول إليه بتعريف عبر الاسم الموصول؟ فالدلالة هنا تقوى من جهتين؛ جهة الصلة والتعريف وجهة الماضي، كما أن استخدام الاسم الموصول للوصول إلى الفعل إشارة إلى الوصول إلى الإيمان بجهدٍ وتقدير الله لهذا الجهد في الإيمان، وهو دعوة للعبد للتمسك بهذا الفوز والوصول والفخر به وزيادته وتثبيته. كما يجب ألّا ننسى أنَّ النداء بالصفة المعرفة المستقرة هي تشريف للمنادى، إذ إنَّهم آمنوا واستقرَّ إيمانهم، كما أنَّ هذا النداء بهذه الصيغة إنما هو تذكير لهم بالعهد الذي عاهدوا الله عزَّ وجلَّ عليه، وهو الإيمان بما أمرهم بالإيمان به.

8-معاتبة الله تعالى أنبياءه في خطابهم فهم مهما بلغت رتبتهم على محك التوجيه والعناية الربانية، التي تذكرهم بما فعلوه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: 1-4].

وهذا اللوم من المحبة كما ورد، وهو توجيه للنبي ﷺ وعتاب في القلب وعمل في الجوارح، وقد رأى بعض العلماء أن ابن أم مكتوم أساء الأدب والتصرف في حضرة النبي ﷺ، ولكن الله عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل

[41] محمد بن علي الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 2: 444.

الصفة، أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني.[42] ويظهر جليًّا جمالية الخطاب الإلهي للنبي ﷺ في معرض اللوم، فخاطبه بداية بصيغة الغائب تخفيفًا لحدّة العتاب، ثم انتقل إلى الخطاب المباشر، لم فعلت هذا؟ إذ لم يقل له عبست وتوليت.

9-تنوّع الخطاب القرآني، فالمتابع القارئ يلاحظ أنّ القرآنَ الكريم لا يعتمد على نداءٍ واحدٍ أو نمطٍ واحدٍ في الخطاب، بل يتنوّع فيه الخطاب، حيث أوصل السيوطي والزركشي في كتابيهما من أنواع الخطاب إلى حوالي الأربعين نوعًا،[43] وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدلُّ على اهتمام المولى عزَّ وجلَّ بالأفراد والعباد كلّ على حدة، ويخاطبهم بما يناسب المقام والحال والأشخاص، فهو يعلِّم الملوكَ الاهتمام بالرعية فردًا فردًا، والتفريق بين المجتهد والكسول، وبين صاحب الصدق وصاحب الخبث، والتفريق في خطاب الرجال عن النساء.

10- من خصائص خطاب النخبة أنَّ خطاب الأنبياء والرسل عامةً كان خطاب حكايةٍ للنبي ﷺ، فهو من المعلوم الواضح، فكان الهدف منه قصصيًّا، للتخفيف عن النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين بقصص من سبق وإظهار تحملهم لأذى مخالفيهم من أجل الدعوة، وتطييبًا لخاطرهم، وحثّهم على الصبر كما صبر السابقون في الدعوة إلى الله، أو لشرح قصصهم للمشركين وأهل الكتاب المخالفين للدعوة الإسلامية تعليمًا لهم ليستفيدوا من تجارب الأمم التي سبقتهم.

11-من خصائص هذا الخطاب أيضًا اهتمام الله عزّ وجلَّ بالذين آمنوا به وبالرسول وهم عصاةٍ ومقصرين وفي قلوبهم ندمٌ وميلٌ إلى التوبة، فقد ذكرهم الله عزّ وجَلَّ في الخطاب غير المباشر عبر واسطة النبي ﷺ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]، فالآية الكريمة السابقة تتجلى فيها مظاهر الرحمة كاملة من كل جوانبها بسبب اهتمام الحق عزَّ وجلَّ بهم _مع اختلاف العلماء في المقصود بهذا الخطاب_[44]، وهذه الجوانب هي:

أولًا: المعنى العام الداعي إلى عدم اليأس من الرحمة.

ثانيًا: ختم الآية بحضرة الغفور الرحيم، وقد أسلفنا سابقا في ذلك.

ثالثًا: وعد الله بغفران الذنوب جميعًا.

رابعًا: استخدام المولى الحقُّ النبيَّ ﷺ وسيلةً للتبليغ بقوله: (قل: أي يا محمّد)،[45] والنبي ﷺ هو المبعوث رحمةً للعالمين بشهادة المولى عزَّ وجلّ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، وهي من دلالة الرحمة في الآية الكريمة.

---

[42] القرطبي، تفسير القرطبي، 19: 213.

[43] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 3: 109; أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتاب العربية، القاهرة، ط1، 1957م، 2: 217.

[44] الطبري، تفسير الطبري، 21: 306 – 311.

[45] محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، 3: 78.

خامسًا: استخدام المولى عزّ وجلَّ ضمير ياء المتكلم لنسبة العباد إليه بقوله (عبادي) وهي نسبة تشريفٍ، وهذه النسبة للرحيم دلالةٌ في سياق رحمةٍ.

سادسًا: استخدام التوكيد (إنَّ) في موضعين للتأكيد على المغفرة وصفة الرّحمة.

سابعًا: استخدام الحروف اللطيفة والهامسة (ي ع س و ا ح ه) لتناسب دلالة السياق.

ثامنًا: "الالتفات بالضمير من التكلُّم إلى الغيبة فيه من أنواع المعاني والبيان أمورٌ حسانٌ: منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات".[46]

12- وردت في نداء المخاطبين أداة النداء (يا) التي تدلُّ على البعد والقرب معًا، لكنها في خطابات النخبة المؤمنين أدَّت معنى أهمية المنادى والتنبيه وجذب الذهن لأهمية ما بعد النداء؛ ففي نداء النبي (يا أيها النبي)، (يا أيها الرسول) كانت الأداة لجذب الانتباه لِما بعد النداء من البلاغ، والنداء بالوصف للتشريف والمكانة، وللتأكيد على الوظيفة المسندة له؛ حيث دائمًا ما تصاحب هذا النداء الأوامر الإلهية الحاسمة بما يناسب الصفة.

4. الخاتمة والتوصيات

ومما سبق رأينا أنَّ الخطاب القرآني راعى المخاطبين بحسب مكانتهم، وكان لخطاب النخبة أسلوب مختلف عن غيرهم عبر الخطاب المباشر بالنداء، ولدرجات النخبة دورٌ في أسلوب الخطاب، إذ وجدنا فرقًا بين أسلوب مخاطبة الأنبياء والرسل وأسلوب مخاطبة النبي ﷺ.

كما أننا لاحظنا كيف أنَّ الله تعالى جعل النبي ﷺ واسطة التبليغ في الخطاب مع المسلمين والعصاة راجي التوبةِ وغير المسلمين، وأنَّ صيغ (قل) تنوّع قصد الخطاب فيها من خطاب للنبي خاص به، وخطاب يشرح كيفية الإجابة عند التعرض لمواقف خاصة، وخطاب ليبلغ من خلفه من المؤمنين.

وأثناء التحليل لبعض الآيات القرآنية في معرض جماليات وخصائص خطاب نخبة المؤمنين وجدنا دقّة الخطاب الربّاني وخلوه من الحشو، ولاحظنا أيضًا استخدام صيغ نداء معيّنة (يا أيها الذين آمنوا) واستبعادًا لصيغٍ أخرى (يا أيها المؤمنون) زيادة في التكريم والتشريف وقوة في الأسلوب، وغيابًا كاملًا لبعض الفئات في النداء (يا أيها المسلمون) و(يا أيها الذين أسلموا) لعدم الحاجة والاكتفاء بـ (يا أيها الذين آمنوا) الذين وقر الإيمان في قلوبهم، وهم جاهزون لتلقي النداء الرباني المباشر.

توصيات البحث:

1. الاهتمام بالخطاب الربّاني لنخبة المؤمنين من جوانب عدّة لغوية وبلاغية وأسلوبية بما يتناسب والدراسات الحديثة مع مراعاة خصوصية النص القرآني.

2. الاهتمام بدراسة أسلوب الخطاب الرباني لكل فئة من الفئات المستهدفة على حدة والتعمق فيه لاستخراج كنوز وخفايا الخطاب الخاص بكل فئة.

[46] المصدر السابق، 3: 83.

3. تسليط الضوء على خصوصية النبي ﷺ في الخطاب الرباني وفق الدراسات التي تتناول الخطاب من المفهوم الحديث المعاصر.

4. دعم فكرة الأبحاث الإحصائية التي تتناول موضوع الخطاب القرآني من شتى كتب العلوم الإسلامية واللغوية لجمع ثمرات ولطائف جهود القدماء في أسفار تخفف عناء التنقل بين ذلك الكم الهائل من الكتب التراثية للبناء عليها في القادم من الأبحاث في هذا الباب.

5. تنسيق الجهود بين مراكز الأبحاث والدراسات لإنشاء دراسات متسلسلة ومتكاملة لأسلوب القرآن الكريم.

ولا نستطيع ختامًا أن نغفلَ دور الدراسات السابقة في رفد علوم العربية بالكنوز المعرفية، تلك الدراسات التي تحيطُ بروائع جماليات وخطابات المولى لعباده، وعمقها، ودرر معانيها ومكنونها، وما بحثنا إلا نتيجة معرفية تراكمية بعد اطلاعنا على العديد من الدراسات مع بعض الرؤى الجديدة التي وصلنا إليها علّها ترفد دراسات أخرى تسبقها لاحقًا، وما هذا إلا جهد المقلّ، وهو شذرات من بستان جمال بلاغة القرآن الكريم وبديع خطابه.

المصادر والمراجع

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1422هـ.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم، لسان العرب، بيروت: دار صادر، الطبعة3، 1414هـ.
- أبو عطايا، أشرف، أبو زينة، يحيى، تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، بحث مقدم إلى مؤتمر"الإسلام والتحديات المعاصرة"المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في الفترة: 2007/4/23م.
- الأزهري الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة1، 2001م.
- الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: فوزية حسن محمود، القاهرة: دار الأنصار، الطبعة 1، 1397هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مجموعة من العلماء، دمشق وبيروت: دار ابن كثير، الطبعة1، 2002م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1988م.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، شرح التلويح على التوضيح، مصر: مكتبة صبيح، د.ت، د.ط.
- الثعلبي الآمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة 2، 1402هـ.

- الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: عدد من الباحثين، جدّة: دار التفسير، الطبعة 1، 2015م.
- الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، تحقيق عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1994م.
- الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الأرياني ويوسف محمد عبد الله، بيروت: دار الفكر المعاصر، الطبعة 1، 1999م.
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، دراسات في علوم القرآن الكريم، الرياض: مكتبة الملك فهد، الطبعة الرابعة عشرة 2005م.
- الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الكويت: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 2، 1965م.
- الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة 2، 1957م.
- السمعاني، منصور بن محمد، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، الرياض: دار وطن، الطبعة 1، 1997م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتب، 1974م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998م.
- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة1، 1997م.
- الصبّان، محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1997م.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكة المكرمة: دار التربية والتراث، د.ت.
- عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، إربد: دار الفرقان، الطبعة الرابعة، 1997م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة 2، 1964م.
- القشيري، عبد الكريم، لطائف الإشارات تفسير القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 3، د.ت.
- مانغونو، دومنيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة1 ،2008م.

- المروزي، عبد الله بن المبارك، الزهد والرقائق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ماليكاون: الهند، صورته دار الكتب العلمية، 1419هـ
- الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 1، 1962م.
- النحاس، أحمد بن محمد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الطبعة 1، 1409هـ.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة للنشر والتوزيع، الطبعة 3، 1997م.

KATKI ORANLARI	
Etik Beyan/Ethical Statament	Bu çalışmanın hazırlanma sürecinde bilimsel ve etik ilkelere uyulduğu ve yararlanılan tüm çalışmaların kaynakçada belirtildiği beyan olunur./It is declared that scientific and ethical principles have been followed while carrying out and writing this study and that all the sources used have been properly cited
Yazarlar/Author(s)	Ahmet Derviş MÜEZZİN- Nezam Alddin EİD
Finansman/Funding	Yazarlar bu araştırmayı desteklemek için herhangi bir dış fon almadıklarını kabul ederler/The Authors acknowledge that they recieved no external funding in support of this research.
Yazar Katkıları/Authors Contributions	Çalışmanın Tasarlanması/Conceiving the Study: ADM (%50), NAE (%50) Veri Toplanması/Data Collection: ADM (%30), NAE (%70) Veri Analizi/Data Analysis: ADM (%40), NAE (%60) Makalenin Yazımı/Writing Up: ADM (%30), NAE (%70) Makale Gönderimi ve Revizyonu/Submission and Revision: ADM (%60), NAE (%40)
Çıkar Çatışması	Yazarlar çıkar çatışması olmadığını beyan ederler/ The Authors declare that they have no competing interests.

Kaynakça

Âmidî, Ebü'l-Hasen Seyfüddîn Alî b. Muhammed b. Sâlim es-Sa'lebî. *el-İhkâm fî Usûli'l-Ahkâm*. thk. Abdürrezzâk 'Afîfî. Beyrut: el-Mektebetü'l-İslâmî, 2. Basım, 1402 h.

Beyhakî, Ahmed b. Hüseyin. *Delâilü'n-Nübüvve ve Ma'rifeti Ahvâli Sâhibi'ş-Şerî'a*. thk. Abdü'l-Mu'tî Kal'cî. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye, 1. Basım, 1988.

Buhârî, Ebû Abdillâh Muhammed b. İsmail. *Sahîhu'l-Buhârî*. thk. Birkaç araştırmacı. Dımaşk ve Beyrut: Dâru İbn Kesîr, 1. Basım, 2002.

Ebû Atâyâ, Eşref - Ebû Zeyd, Yahyâ. *Tatvîru'l-Hitâbi'd-Dînî ke Ehadi't-Tahdiyyâti't-Terbeviyyeti'l-Muâsıra*. İslâm Üniversitesi Usûli'd-Dîn Fakültesinde düzenlenen "İslâm ve Çağdaş Zorluklar" konferansına sunulan bir araştırma. Tarih:23/04/2007.

Eş'arî, Ebü'l-Hasen Alî b. İsmâîl. *el-İbâne 'an Usûli'd-Diyâne*. thk. Fevziye Hasen Mahmûd. Kahire: Dâru'l-Ensâr, 1. Basım, 1397 h.

Ezherî, Ebû Mansûr Muhammed b. Ahmed. *Tehzîbü'l-Lüğa*. thk. Muhammed 'avd Mür'ib. Beyrut: Dâru İhyâi't-Türâsi'l-'Arabî, 1. Basım, 2001.

Himyerî, Neşvân b. Saîd. *Şemsü'l-'Ulûm ve Devâ'ü Kelâmi'l-'Arab mine'l-Külûm*. thk. Hüseyin b. Abdillah el-Amrî - Mutahhar b. Ali el-Iryânî - Yusuf Muhammed Abdullah. Beyrut: Dâru'l-Fikri'l-Mu'âsır, 1. Basım, 1999.

İbn Mâce, Muhammed b. Yezîd el-Kazvînî. *Sünen*. thk. Muhammed Fuâd 'abdü'l-Bâkî. Kahire: Dâru İhyai'l-Kutubi'l-'Arabiyye, 1. Basım, 1954.

İbn Manzûr, Cemâleddîn Mohammed b. Mükerrem. *Lisânü'l-'Arab*. Beyrut: Dâru Sâder, 3. Basım, 1414 h.

İbnü'l-Cevzî, Abdurrahmân b. Alî b. Muhammed. *Zâdü'l-Mesîr fî 'İlmi't-Tefsîr*. thk. Abdü'r-Rezzâk el-Mehdî. Beyrut: Dâru'l-Kitâbi'l-'Arabî, 1422 h.

Kurtubî, Ebû Abdillah Muhammed b. Ahmed. *el-Câmi‘ li-Ahkâmi’l-Kur’ân*. thk. Ahmed el-Berdûnî – İbrâhîm Atfeyş. Kahire: Dâru’l-Kütübi’l-Mısriyye, 2. Basım, 1964.

Kuşeyrî, Abdü’l-Kerîm. *Letâifü’l-İşârât/Tefsîrü’l-Kuşeyrî*. thk. İbrâhîm el-Besyûnî. Mısır: el-Hey’etü’l-Mısriyyeti’l-Âmmeti li’l-Kitâb, 3. Basım.

Mânğûnû, Dominik. *el-Mustalahâtü’l-Mefâtîh li Tahlîli’l-Hitâb*. çev. Muhammed Yahyâtin. Beyrut: ed-Dâru’l-‘Arabiyye li’l-‘Ulûmi Nâşirûn, 1. Basım, 2008.

Melâike, Nâzik. *Kadâya’ş-Şi‘ri’l-Mu‘âsır*. Beyrut: Dâru’l ‘İlm li’l-Melâyîn, 1. Basım, 1962.

Mervezî, Abdullah b. el-Mübârek. *ez-Zühd ve’r-Rakâik*. thk. Habîbü’-Rahmân el-E‘zamî. Malekon: Hindistan, Dâru’l-Kütübi’l-‘İlmiyye, 1419 h.

Nahhâs, Ahmed b. Muhammed, *Me’âni’l-Kur’ân*. thk. Muhammed Ali es-Sâbûnî. Mekketü’l-Mükerreme: Câmi‘atü Ümmi’l-Kurâ, 1. Basım, 1409 h.

Sa‘lebî, Ebû İshâk Ahmed b. Muhammed. *el-Keşf ve’l-Beyân ‘an Tefsîri’l-Kur’ân*. thk. Birkaç araştırmacı. Cidde: Dâru’t-Tefsîr, 1. Basım, 2015.

Sabbân, Muhammed b. Alî. *Hâşiyetü’s-Sabbân ‘alâ Şerhi’l-Üşmûnî li Elfiyyet’i İbn Mâlik*. Beyrut: Dâru’l-Kütübi’l-‘İlmiyye, 1. Basım, 1997.

Sâbûnî, Muhammed b. ‘Ali. *Safvetü’t-Tefâsîr*. Kahire: Dâru’s-Sâbûnî li’t-Tıbâ‘a ve’n-Neşr ve’t-Tevzî‘, 1. Basım, 1997.

Sem‘ânî, Ebü’l-Muzaffer Mansûr b. Muhammed. *Tefsîru’l-Kur’ân*. thk. Yâsir b. İbrâhîm – Ğanîm b. Abbâs. Riyad: Dâru Vatan, 1. Basım, 1997.

Taberî, Muhammed b. Cerîr. *Câmi‘u’l-Beyân ‘an Te’vîli Âyi’l-Kur’ân*. thk. Mahmûd Muhammed Şâkir. Mekketü’l-Mükerreme: Dâru’t-Terbiye ve’t-Türâs.

Teftâzânî, Sa‘düddîn Mes‘ûd b. Ömer. *Şerhu’t-Telvîh ‘ale’t-Tavzîh*. Mısır: Mektebetü Sabîh.

Yaktîn, Sa‘îd. *Tahlîlü’l-Hitâbi’r-Ruvâî*. Beyrut: el-Merkezü’s-Sekâfî’l-‘Arabî li’t-Tibâ‘a li’n-Neşr ve’t-Tevzî‘, 3. Basım, 1997.

Zebîdî, Ebü’l-Feyz Muhammed el-Murtazâ b. Muhammed. *Tâcü’l-‘Arûs min Cevâhiri’l-Kâmûs*. thk. Muhakkiklerden bir topluluk. Kuveyt: Dâru’l-Hidâye li’t-Tıbâ‘a ve’n-Neşr ve’t-Tevzî‘, 2. Basım, 1965.

Zerkeşî, Ebû Abdillâh Bedrüddîn. *el-Burhân fî ‘Ulûmi’l-Kur’ân*. thk. Muhammed Ebu’l-Faysal İbrâhîm. Beyrut: Dâru İhyâi’l-Kütübi’l-‘Arabiyye, 2. Basım, 1957.